(هنري الرابع) نموذج لمسرح شكسبير

إبراهيم عبد الله الخويطر

كاتب ومفكر

يقول العقاد:«كاتب الأعاجيب ليس في سيرته خبر عجيب من يوم مولده إلى يوم وفاته».

مولده: ولد وليم جون شكسبير في قرية (سترا تفورداون أفون) في بريطانيا في 23 نيسان/أبريل عام 1564م، ودرس الابتدائية في تلك القرية التي أصبحت فيما بعد مزاراً للمهتمين بالأدب والثقافة في العالم.

يحدثنا لويس عوض عن شكسبير إلى إنكلترا موفداً من قبل (الأهرام) ليشارك في الاحتفال على مرور أربعمائة عام على مولد شكسبير وذلك في عام 1964م، وكان الاحتفال بقرية الشاعر، كانت الوفود المشاركة تزور قبره، وبيته الذي نشأ فيه، ومدرسته التي درس فيها الابتدائية والكنيسة التي فيها قبره.

لقد درس الابتدائية في قريته، وعمل فيها مدة بعد تخرجه، وتزوج في تلك القرية، ثم تركها إلى (لندن) بعد الزواج عام 1584م، غادر القرية بعد الزواج بثلاث سنوات، ولم يعد إليها إلا بعد أن اعتزل العمل وعمره 48 عاماً وذلك قبل وفاته بأربع سنوات فقد توفي عام 1616م، ودفن في قريته.

والده: (جون) ابن مزارع يعد برجوازياً محترماً لأنه إحدى بنات (روبرت اردن)، وهو رجل صاحب مزرعة وجذوره تعود إلى نبيل كاثوليكي، وقد حصلت والدته من والده على إرث على بعض الأموال، و50 هكتاراً من أرض زراعية. من هنا جاءت لأبيه البرجوازية، وقد استغل والده الأرض في الزراعة ولعله لم يوفق، فاشتغل بأموال زوجته التي ورثتها من أبيها في صناعة القفازات ثم في صناعة الصوف، وقيل إنه يملك ثلاثة منازل يؤجرها غير منزله الذي يسكن وقد عمل ذواقة للجعة ثم شرطياً ثم أمين صندوق ثم عضواً في المجلس التشريعي، وأخيراً عمل مشرفاً على أملاك الملك.

إخوته: ثمانية، مات منهم ثلاثة في سنّ الطفولة وبقي منهم خمسة، أربعة أبناء وبنت، كان (وليم) أكبر الأخوة الباقين.

عصره: هو العصر المتعارف عليه بعصر النهضة الذي يبدأ من منتصف القرن الخامس عشر إلى نهاية القرن السابع عشر فيعد وصول أسرة (آل تيودور) إلى الحكم حيث وضعت للاقتتال بين الأسرة الحاكمة والصراع على الحكم. واستبدلت بالقتال الحوار، فاستقرت الدولة واتجه الحكام إلى التعليم والثقافة، ولعل وصول (إليزابيث) إلى الحكم عام 1559م وذلك قبل مولد «شكسبير بخمس سنوات يعد فتحاً مبيناً للتعليم والثقافة فشملت المدارس جميع القرى وأصبح العصر يعرف بالعصر الاليزابيثي» وكانت من ضمن الاهتمامات الثقافة، افتتاح المسارح للترفيه عن كبار الدولة وأصحاب التجارة والنفوذ؛ والفضل يعود لتطور المسرح لـ(إليزابيث) الملكة فقد كان المسرح محارب قبلها من قبل رجال الدين فهم يصفون الممثلين بالمتعجرفين وشذاذ الآفاق؛ وكانوا يطاردونهم في كل مكان، ففي عام 1572م صدر قانون حيث يُسمح للممثلين بتأليف جمعيات لتسلية الكبار (في الدولة) ومن هنا أصبح المسرح مرعياً من قبل الدولة والأرستقراطيين ثم بدأت الفِرَق تستغل أوقات فراغها بين الخصلات لتقديم عروضهم في الأرياف، وكان والد شكسبير يشرف على الفندق الذي تقام فيه المسرحيات، وكان معجباً ومحباً للمسرح.

أما ابنه (وليم) فكان هو الآخر معجباً بالفرق الممثلة ولكن لا يسمح له بالدخول، فكان عمله هو الانتباه للخيول والمحافظة عليها وسياستها حتى يخرج أصحابها من مشاهدة المسرح، ثم أصبح يحضر المسرح ويعطي دوراً ثانوياً، ثم استعان به أعلام المسرح آن ذاك بالمراجعة لبعض النصوص المسرحية، ثم مشاركتها في التأليف، وقد كان التأليف المسرحي محتكراً على أسماء لامعة أبرزها ثلاثة، مالرو، و بيل، وجرين؛ وكان مالرو أبرزهم وقد لمح في الفتى الناشئ ملامح الذكاء، فقربه وبدأ يعطيه بعض النصوص ليراجعها تحت إشرافه، ولما جاء دور مسرحية هنري السادس بأجزائها الثلاثة التاريخية، فاقتسمها المؤلفون الثلاثة فيما بينهم، فكان نصيب الجزء الأول مالرو و بيل الجزء الثاني، والجزء الثالث من نصيب مالرو وتعد مسرحية (هنري السادس) أول جهوده المسرحية، فقد أسند إليه مالرو و بيل. نصوصاً من الجزء الثاني والثالث، فكان مجهوده فيهما كبيراً أما الجزء الأول الخاص بـ(جرين) فلم يشارك فيه بادئ الأمر لأن جرين يحسد هذا الفتى ويخاف تفوقه، لكن جرين ما استطاع أن ينجز ما أسند، فأسند الجزء إلى (الفتى شكسبير) لذا أصبحت مسرحية هنري السادس تُعد أول أعماله المسرحية لأن الجزء الأول بكامله من جهوده والجزء الثاني والثالث أنجز ما يقارب من ثلثيهما والمتتبع لسيرة هذا العبقري لا يجد فيها شيئاً خارجاً عن المألوف، لا في تعليمه ولا في بداياته المسرحية.

أقوال شكسبير وأعماله

لعل من نبّه إلى نبوغ شكسبير وعبقريته معاصره المؤرخ (كلمدن)، إذ ذكره بين نوابغ الفكر.

قال فولتير: «إن شكسبير الذي يعده الإنكليزي ك. سوفوكلي أبدع مسرحاً، وكان يملك موهبة غنية بالقوة والخصب، دون أقل شرارة من الذوق، ودون أقل معرفة للقواعد».

ملاحظة: أما قول فولتير: إن أدب شكسبير من الذوق فروعة أدبه تدل على روعة في الذوق. أما القواعد التي يشير إليها، فهي الوحدات الثلاث التي وضعها أرسطو، ولو لم يخرج لم يكن رائداً للمسرح الحديث؛ أما مدام دي شتايل الكاتبة الفرنسية فتقول يبدأ شكسبير أدباً جديداً، لا شك أنه تأثر بروح قصائد الشمال وشكلها ولكنه هو الذي أعطى للأدب الإنكليزي حافزه، وللفن المسرحي الانكليزي طبيعته. وقال الأديب الفرنسي ستاندهال: «يزداد إعجابي بشكسبير في كل يوم. لا أمل أبداً من قراءة أعمال هذا الرجل لأنه يعطينا أكمل صورة للطبيعة إنه الدليل الذي يناسبني». وقال الفرنسي ساتوبريان: «يعد شكسبير واحداً من بين خمسة أو ستة أدباء أوفوا باحتياجات وغذاء الفكر ويبدو أن هؤلاء النوابغ أنجبوا وأرضعوا كل النوابغ الآخرين». أما فيكتور هوجو فقال: «إن كل الحياة سر مغلق بين الولادة والألم، وبين العين التي تفتح والعين التي تغلق؛ في أعمال شكسبير تغني الطيور، وتخضر الأعشاب وتحب القلوب، وتتحدث الغابات والجموع، ويطفو الحلم الواسع الأبدي؛ مَلَك شكسبير ناصية التراجيديا والكوميديا، والنغم والمهزلة والخوف والرعب، أي بكلمات أخرى الفن المسرحي بالكامل، نرى في شكسبير انتشار شعاع النبوغ في كل اتجاه» ولعل هوجو قد أوفاه حقه.

وقال الأديب الإنكليزي براد بروك: «إن شكسبير لبلادي كنسمة الهواء بالنسبة للمصاب بالاختناق. إنه نابغة الدهور». وقال الإنكليزي كاننغهام: «لو أردت أن أوفي شكسبير حقه في إنهاض المسرح وتحبيب الشعر لدى العامة لما كفاني عشرون مجلداً. إنه موهبه.. لا يمكن سبرها ويظل السر المغلق الذي حيّر الباحثين».

وقال الأمريكي هاري ليفن: «عندما أزور (ستراتفورد أون أفون) قرية شكسبير – أقف مشدوهاً في شوارعها وأزقتها، وأتعجب كيف أنجبت هذه الأرض العاقرة مثل هذا الخصب في الفكر».

وقال الأمريكي فارنهام حول مآسي شكسبير: «لقد وصل شكسبير إلى الحدود المأساوية. يصف لنا في مؤلفاته الأحاسيس، والمشاعر الدقيقة الموجودة في قلب الإنسان التعيس، المعذب، التواق إلى الموت للخلاص من محنته إنه في بعض المقاطع من مآسيه يجعلني أبكي». وقال أخيراً الأديب الفرنسي الفريد دي فيني: «لا يكفي معرفة اللغة الإنكليزية لفهم هذا الرجل العظيم يجب أيضاً فهم شكسبير لأنه لغة أيضاً، ولا شك أن روح شكسبير هي لغة في حد ذاتها».

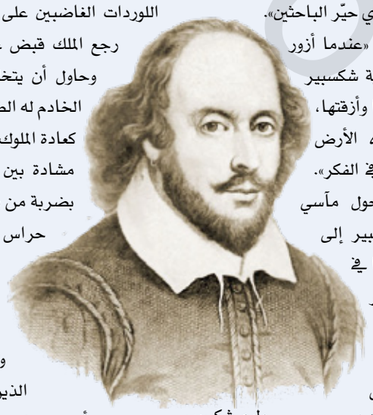

وليم شكسبير

هذه الأقوال هي فيض من الإعجاب من كبار الأدباء في أنحاء العالم وهو إعجاب لم يسبقه إليه أحد ولم يلحق به أحد وشكسبير طرق جميع أنواع المسرحيات من كوميديا وتراجيديا، وتاريخية، وكان في كلها منقطع النظير، ولعلنا نأتي بنماذج من كل نوع:

نبدأ بـ(هنري الرابع): لأنه جاء بمؤامرة، وأسس لمعارك ومؤامرات دموية بين أسرتين من الأسر الحاكمة تتنافسان على الحكم فيما عُرف فيما بعد بـ(حرب الوردتين) التي استمرت ثلاثين عاماً، ولم تتوقف إلاّ عندما جاءت أسرة (آل تيودور) التي وصلت إلى الحكم عام 1485م قبيل عصر شكسبير وجعلت حدّاً للخلاف الدموي الذي عاش ثلاثين عاماً، وجعلت من الحوار طريقاً لحل الخلافات، والتي أنجبت (إليزابيث) التي يُنسب عصر النهضة التي عايشها شكسبير إليها، فيقال لـ(العصر إليزابيثي) فقد توجت ملكة 1559م قبيل ولادة شكسبير بخمس سنوات فقد ولد عام 1564م.

فهنري الرابع والده جون كبير أسرة لنكستر التي تبنّت فيما بعد (الوردة الحمراء) شعاراً لها، كان هنري هذا دوق هرفورد ويلقب قبل أن يصبح ملكاً بـ(بولنجبروك) وكان منافسه دوق أسرة نوردفوك (توماس موبري) وهم أسرة (لورك) التي أصبح شعارها فيما بعد (الوردة البيضاء) هنري هذا اتهم بتآمره على الملك (ريتشارد) وقد أنكر ذلك واتهم بدوره (توماس موبري) واسترعاهما الملك ريتشارد ليتقابلا وجهاً لوجه ليعرف الحقيقة، ولكنهما أنكر، فطلب منهما المبارزة بحضور الملك، وعندما بدأت المبارزة جادة أوقفها الملك، وكان الملك يشك في هنري لكن ينقصه الدليل، فنفاهما، وفي أثناء انشغال الملك ريتشارد بحربه مع فرنسا، تسلل هنري راجعاً بمساعدة اللوردات الغاضبين على الملك، ورجع من منفاه ولمّا رجع الملك قبض عليه هنري، وأودعه السجن وحاول أن يتخلص منه بالسم، فلما قدم الخادم له الطعام طلب الملك أن يذوقه أولاً كعادة الملوك، ولكن الخادم رفض، فكانت مشادة بين الملك والخادم، فقتله الملك بضربة من بلطة كانت قريبة منه فتدافع حراس السجن على الملك وقتلوه بنفس البلطة التي قُتل فيها الخادم فأصبح هنري ملكاً وعُرف بـ(هنري الرابع) ولأنه خائف من اللوردات الذين ساعدوه وتخلى عنهم أراد أن يصرفهم بالاستعداد للحرب المقدسة لإخراج الكفرة من بيت المقدس من هنا تبدأ المسرحية تقول المسرحية (هنري الرابع) في القصر ..

الملك: أما من سبيل، وقد زلزلتنا الإحن، وأوهنتنا الهموم أن نحمل السلام الذي طاردته حروبنا الأهلية على أن يطمئن ويهدأ ويتنفس الصعداء من هذا الطراد الطويل، وأن يهمس في عبارات لاهثة شائعات حرب جديدة تشنها في شواطئ سحيقة بعيدة عن ديارنا ... كي لا تعود هذه الأرض الظامئة .. إلى تدنيس أفواهها بشرب دماء أبنائنا، ولنرد يَدُ الدمار عن حياضها التي أضرت بها الخنادق .. والمتاريس... ولتكف سنابك الخيل المتحاربة عن إهلاك حرثها ونباتها، وليقف هؤلاء المتخاصمون من أبنائها الذين قطعتهم الإحن، واندلع بينهم لهيب الحقد كم يندلع لهيب الشهب في سماء ثائرة عاصفة ليقف هؤلاء الأبناء الذين اشتبكوا أخيراً في قتال عنيف، وحرب أهلية عاتية أتخنت فيها الجراح، وأزهقت الأرواح مع أنهم جميعاً من جبلة واحدة، تجمعهم أروحة مشتركة ليقفوا صفاً واحداً على اختلاف نزعاتهم، ويسيروا معاً مؤتلفين إلى هدف مشترك متناسين خلافاتهم، وغير متنكرين لوشائج الدم والألفة والجوار التي تربطهم، وهكذا يكف سيف الحرب عن أن يرتد في نحر صاحبه، كما ترتد السكين التي لم يحسن صاحبها عمدها في يده.. فتجرحها .. فهيا بنا أيها الأصدقاء نجند قوة من الإنكليز ونقودها إلى الأرض المقدسة حيث قبر المسيح الذي نحن جنده الآن، والذي تعاهدنا وارتبطنا تحت الصليب المقدس أن نحارب في سبيله هيا نقود هذه الحملة من الرجال.

***

(لكن ابن عمه اللورد «وستمورلند» المكلف بتنظيم الحملة) يفاجئه بقوله:

– وستمورلند: مولاي، لقد كان إنقاذ هذه الحملة على الفور موضع البحث الجدي، واتخذت عدة من التدابير لمواجهة تكاليف الحملة وتعيين قوادها ولكن أمس انقلب

الأمر .... حين وفد رسول من الغال يحمل أنباء سيئة (الخبر السيئ أفشل الحملة هم اللوردات الذين غدر بهم ثاروا ضده ولعل ما زاد من غضب الملك أن الذي قاد الحملة ضده هو ابن أحد اللوردات (هنري برسي، ويلقب «هوتسبر» هذا الشاب الفارس الشجاع، أوقع لغريمه هزيمة منكرة في جيش الملك بينما أكبر أبناء الملك «هال أو هنري» أمير ويلز يلهو ويمرح في المواخير يمارس الدعارة وقطع الطرق، فنقلت إليه أخبار ما قام به ذلك الفارس المغوار فقال):

– الملك: لشد ما يحزنني قولك هذا، ويحملني على أن أرتكب خطيئة الحسد للورد (نورثمبرلند) يقصد والد هوتسبر على أن يكون له مثل هذا الابن المبارك الذي يلهج المجد بذكره هذا النبت المستقيم العود وسط الأحراش المليفة.

❊❊❊

إني لأقرأ آيات جده بينما أنظر لأرى ابني هاري الشاب وقد تلطخت صفحته بالشقوة والعار.

(لورد شكسبير حوار يدور بين (هال) وصديقه الماجن المستهتر الذي لا يعرف من اليوم إلا ليله، لقطع الطريق أو اللهو مع النساء صديق الأمير يدعى «فولستاف»).

– فولستاف «وهو يستيقظ» هيه ياهال في أي ساعة من النهار نحن يافتى.

– الأمير: يالك من غبي تبلد ذهنك من طول معاقرتك للنبيذ المعتق، وحل إزارك بعد العشاء، ونومك على المقاعد بعد الظهر .... ألخ.

– فولستاف: لقد أصبت الهدف حقاً، وكدت تفهمني الآن ياهال فتحن الذين نسرق الأكياس، لا نعمل إلا في ضوء القمر، ولا نحسب أوقاتنا إلا به وبالنجوم السبعة ...

(يدخل واحداً من أصحابهما واسمه (يوان) يخبرهم بصيد ثمين تجار وحجاج قادمون، للتخطيط لسرقتهم)

– بوان: ... اسمعوا أقول لكم يافتيان ستجدون غداً صباحاً في الساعة الرابعة مع البكور في (جادزهيل) حجاجاً في طريقهم إلى (كانتربري) وقد حملوا معهم قرابين ثمينة كما تجدون تجاراً مسافرين إلى لندن وقد ورمت أكياسهم من النقود، لقد أعددت لكم جميعاً أقنعة تستخفون بها، وما عليكم إلا أن تعدوا خيولكم ...

(ولأن (فولستاف) ذلك البطين في منتهى الجبن وإن كان يدعي خلاف ذلك فأراد «بوان مع الأمير» أن يكتشفاه على حقيقته فدبرا له مزحة، نوردها في هذا المقطع).

– بوان: والآن ي أميري المحبوب، اركب معنا غداً، فإن لديّ مزحة ولكني لا أستطيع أن أقوم بها وحدي. سنترك (فولستاف) و باردولف و بيتو، وجادشل، يسرقون هؤلاء الرجال الذين أعددنا لهم كميناً من قبل.

ويستغرق شكسبير في أحوال هذه الجماعة في وصف ما يحدث بينهم من خلافات في الحان من سخرية بعضهم من بعض على سبيل المثال، ليقول لنا كم هذا الأمير غارق في غيّه بعيد كل البعد عما يتطلبه الملك من جدية وتضحيات خصوصاً في هذه الأيام العصيبة التي يكون فيها أبوه الملك في أشد الحاجة إلى أبنائه وفي مقدمتهم ولي عهده. فالملك تكالبت عليه الظروف ما بين جماعة ثائرة ضده بما فيهم الأسقف الكبير وبين المرض الذي أخذت نوباته تصرعه بين مدة وأخرى. وسنورد مقاطع أخرى تحكي عن مجالس أنسه ودعابات أصدقائه، وبين مواقف الأمير الأخيرة مع أبيه عندما رجع بصدق التوبة وبجدية الشاب المخلص المهيأ للملك.

يقول فولستاف – وهو كبيرهم الذي علمهم المجون والاستهتار.

– فولستاف: إني أحدثك يا هاري بحرقة الدمع لا بنشوة الشراب، وبلَوْعة الأسى لا يغمره السرور أحدثك لا بلساني فحسب، ولكن بآلامي أيضاً. ومع ذلك فهناك رجل فاضل (يقصد نفسه) طالما لاحظته في صحبتك ولكني لا أعرف اسمه.

– الأمير: أي نوع من الرجال هو إن أذنت لي يا مولاي؟

– فولستاف: رجل طيب ذو مهابة مفرط في السمن طلق المحيّا ضاحك السن عليه سمة النبلاء، عمره يجاوز الخمسين فيما أظن، أو يقترب من الستين. لقد تذكرت اسمه الآن فهو يدعى فولستاف، فإذا كان هذا الرجل منغمساً في الشهوات، فقد خدعني مظهره. لأني توسمت الفضيلة في يا هال. وإذا كانت الشجرة تعرف بثمارها، وكانت الثمرة تنم عن أصلها فقد حق لي أن أؤكد لك أن فولستاف هذا تنطوي جوانحه على الفضيلة. فاحتفظ به لنفسك وخلّ بينك وبين الآخرين.

(العتاب المر من الملك – هنري الرابع – لابنه (هاري) أمير ويلز وأمير الغال أي (فرنسا)).

الملك: (يخاطب ابنه) لست أدري أهي مشيئة الله أن تجري الأمور على هذا النهج تكفيراً لذنب جنيته فيما سلف... فتقنى في غيبه الذي لا يرد أن يخرج من صلبي.. من ينتقم لخطيئتي ويكون عليّ سوط عذاب بلى ... إن سلوكك في أمور حياتك يحملني على الاعتقاد بأن عناية الله قد اختارتك لتكون آلة الانتقام الرهيب، والسيف المسلط على رأسي للتكفير عن آثامي، وإلاّ فقل لي: بأي شيء آخر يمكنك أن تفسر هذه الشهوات الجامحة الدنيئة... وهذه النزوات والفعال الرخيصة المبتذلة السوقية، وهذا الانغماس في الملذات النابية والصحبة الجافية كتلك التي تسوقك وتجري في عروقك .. وكيف يمكن أن تتمشي هذه السقطات وكيف يساير قلبك النبيل هذه المباذل إلا إذا كان هو نفسه مبتذلاً ساقطاً.

(مقطع وهو يشكو الأرق ويحسد الفقير على راحة البال والصحة) يقول:

الملك: «مخاطباً نفسه: ترى كم ألف من أفقر رعاياي في هذه الساعة نائمون.

أيها النوم .. أيها النوم الجميل يا ظئر الطبيعة الحاني» بالله ألا قلت لي، كيف أزعجتك وحرمت أجفاني لذة الرقاد .. وسلبت حواسي نعمة النسيان؟

ويحك أيها النوم كيف تؤثر الجحور الجسية برعايتك وتهجر القصور الفسيحة المعطرة .. ويحك أيها النوم .. كيف تغشى عيون النوّام فوق الوسائد الخشنة المقلقة وتغرقهم لجنة النعاس والذباب من حولهم يطن طنيناً يؤرق الجفون وتفضلها على الأسرة العالية ذات الكلات النفيسة التي تضم مخادع الملوك ومن حولك أنغام حلوة تنساب في رقة تغري بالسبات العميق.

ويحك أيها الإله الوسنان لمَ تختار مثولك بين الرعاع والسوقة وعلى الفرش الخشنة الكريهة، وتذر مخادع الملوك ذات الستر الذهبية المبرقة قلق أصحابها مؤرقون لا يهدأون، كأنما هي آلة حساب الزمن في علبتها، إذا الناقوس دق لا يغفل لهم جفن أبداً. ما لك أيها النوم تداعب عيني في السفينة وتغرقها في سبات عميق، وهو جاثم فوق الصارية العالية التي تتأرجح فوق مهد من اللجة العاتية. والريح من حولها تعصف وتثور في غير انقطاع وتمسك بناصية الأمواج العاتية.

❊❊❊

تتأبّى على ملك بلمسة لجفونه المؤرقة في هدأة الليل وبالغ السكون حيث الراحة مكفولة والوسائل كلها متوافرة! ألا فلتهنأ بالنوم أيها الحقير السعيد، وما أشقى الرأس الذي يلبس التاج.

(وهذا المقطع للملك عندما جاءته أخبار سارة، بانتصارات ابنه هاري على الخصوم) يقول:

الملك: ما لهذه الأنباء الطيبة السارة؟

أوَ حتم ألاّ يواتي الحظ كاملاً أبداً، فيأتي بالخبر ملُ يديه أم لا بد من نقصان يشوبه فيخط الكلمات الطيبة الجميلة بحروف مشوهة كريهة؟

فالحظ إما أن يواتي بالشهية وينقص الطعام، كما هي الحال مع الفقراء حين يمنحهم الصحة ويحرمهم الزاد الزفير، وإما يكثر الأرزاق ويحرم الشهية كما هي الحال مع الأغنياء، حين يعطيهم السعة في العيش، ويسلبهم نعمة الاستمتاع بها.

لقد حق لي أن أحتفي الآن وأبتهج بهذه الأنباء السعيدة. ولكن بصري يضعف فلا أكاد أرى وعقلي يضرب فلا أكاد أعي.

أواه، يا رباه، أمسكوني، واقتربوا مني، فإن العلة قد اشتدت بي.

(الملك وهو على فراش الموت في قصره، وتاجه بجواره)

الملك (يخاطب المحيطين به): أرجو أن تعفوني من كل ضجيج أيها الأصدقاء الكرام إلا أن تكون أنغاماً موسيقية هادئة تعزفها يد حانية رقيقة، لتنعش روحي المعذبة ورك (أحد اللوردات) أهدوا الموسيقى في قاعة أخرى.

الملك: ضعوا التاج هنا إلى جانبي على هذه الوسادة.

الأمير (يدخل) كيف حال الملك؟

جلوستر: في شدة المرض.

الأمير: وهل بلغته الأنباء السارة؟ أبلغوه إياها.

جلوستر: لقد تغير كثيراً حين سمع بها.

ورك: خفضوا الضجيج يا سادة.

خفض من صوتك يا سيدي الأمير.

فإن الملك. والدك يتداعى للنوم.

كلارنس: هيا ننسحب إلى القاعة الأخرى.

ورك: أتأذن يا صاحب السمو أن تصاحبنا إلى هناك.

الأمير: لا، لا، أجلس هنا وأسهر إلى جانب الملك.

يخرجون من (الباب الأيسر) لماذا يرقد التاج هنا فوق وسادته وهو رقيق، جد متعب مؤرق لصاحبه في الفراش؟

إيه أيها القلق البراق – إيه أيها الهم الذهبي. يامن تنفي الرقاد من العيون وتسهدها مفتحة الجفون مؤرقة ليالي طوال، أينام أبي وأنت جانبه؟

ولكنه نوم على أي حال ليس في نصف حلاوة نوم الخلي الذي غطى رأسه واستغرق في نوم هنيء طوال الليل. إيه يا تاج الملك!

إنك حين تشقي وتعذب حاملك تحل فوق رأسه كدرع سميك يلبس في حر النهار. فيشوي صاحبه لظاه وإن ضمن له الحماية والأمن.

(يقترب من فراش الملك) إن بالقرب من شفتيه ومخرج أنفاسه زغب ريشه، ولكنها ساكنة لا تتحرك: ترى هل يتنفس؟ لو كان يتنفس لتحركت بالضرورة هذه الخفيفة التي لا وزن لها، (يصرخ) مولاي الكريم أبتاه.

هذا هو النوم العميق بحق، هذا هو النوم السرمدي الذي أخرج عدداً كبيراً من ملوك إنجلترا من هذه الدائرة الذهبية.

إن حقك علي أن أذرف الدموع، وأن يملأ الحزن جوانحي كمداً وهذا يا أبتاه العزيز ما سأوافيكه بسخاء بدافع من طبيعتي وحتى وبنوتي الحنونة المخلصة لك؛ أما حقي عندك فهو هذا التاج العظيم الذي ينحدر إليّ لأني خليفتك الطبيعي وأقرب الناس إليك مكانة ونسباً.

(يضع التاج على رأسه) انظر أين حل التاج؟

إنه حيث حل حرسته عناية الله! ومهما تجمعت قوى الدنيا كلها وتركزت في ذراع مارد جبار فلن تستطيع أن تغتصب هذا الشرف الموروث أباً عن جد مني هذا التاج الذي ورثته عنك سأورثه خليفتي وأتركه له سليماً كما تركته لي (يركع على ركبته لحظة في صلاة وخشوع، ثم يغلبه الأسى، فينسحب في هدوء من الباب الأيمن. سكون)

الملك: (يتحرك) ورك. جلوستر. كلارنس (يعود ورك والأمراء الصغار على عجل)

كلارنس: أينادي الملك؟

ورك: ما هي مشيئتك يا صاحب الجلالة وكيف حالك يا مولاي.

الملك: لمَ تركتموني هنا وحيداً يا سادتي؟

كلارنس: تركنا الأمير أخي هنا يا مولاي فقد أخذ على نفسه أن يجلس معك ويسهر إلى جانب فراشك.

الملك: أمير ويلز أين هو دعوني أراه إنه ليس بينكم هنا.

ورك: (مشيراً إلى الباب الأيمن) إن هذا الباب مفتوح ولا بد أنه خرج منه.

جلوستر: إنه لم يخرج إلى القاعة التي كنّا نجلس فيها.

الملك: وأين التاج؟ من أخذه من فوق وسادتي؟

ورك: حين خرجنا تركناه هنا في موضعه يا مولاي.

الملك: إذن لقد أخذه الأمير، اذهب وابحث عنه أهو متعجل إلى هذا الحد حتى يظن أن نومي موتي؟

ابحث عنه يا لورد ورك وأرسله إلى هنا، وله على ما فعل.

(يخرج ورك) هذه العجلة من جانبه تتحالف مع دائي وتعجل بآخرتي.

تأملوا يا أبنائي أي شيء أنتم! وانظروا كيف تسارع الطبيعة إلى الثورة والانتفاض حين يكون الذهب هو الهدف والغاية!

أَلِمثل هذا أقضّ الآباء الحمقى المهوفون مضاجعهم بالسهر والضني لصالح أبنائهم، وكدّوا أذهانهم بالهموم وهدّو عظامهم في السعي والعمل؟

أَلِمثل هذا جمعوا وكدسوا أكوام الذهب التي حصلوها بشق الأنفس وأثقلوا ضمائرهم بخطايا جمعها بشتى الأساليب؟

و أَلِمثل هذا تحملوا همّ تثقيف أبنائهم. بالآداب وفنون الحرب.

إننا كالنحلة التي تشتار الرحيق من كل زهرة، حتى إذا امتلأت أفواهنا بالشهد وأثقلت أفخاذنا بالشمع عدنا إلى الخلية لنضع حملنا فيها وجزاؤنا على هذا الكد لا يختلف عن جزاء النحل، فنحن مثله نقتل كي يفوز غيرنا بالشهد.

إن هذا هو العلقم الذي يتجرعه الآباء على فراش الموت.

(يعود ورك) هيه أين هو ذلك الذي لم يطق صبرا حتى يقضي صفيّه المرض أمره فيّ ويسلمني للموت؟

ورك: مولاي! لقد وجدت الأمير في الغرفة المجاورة يغسل خدّيه الرقيقتين بدموع الوفاء وقد بدا الحزن المرير على ملامحه بوضوح مؤثر...

الملك: ولكن لمَ أخذ التاج من هنا؟

(يدخل الأميرَ هنري) انظروا ها هو ذا قادم، تعال هنا يا هنري اقترب مني، اخرجوا من هذه الغرفة ودعونا وحدنا (يخرج ورك والآخرون).

الأمير: ما ظننت قط أعود فأسمعك تتكلم ثانية.

الملك: هذا الظن من بنات رغباتك يا هنري!

هل أنت متعطش إلى هذا الكرسي لا تطيق صبرا على بعده حتى لتعجل بإلباس نفسك إمارة وتاجي أتسعى إلى العظمة التي ستهلكك؟

تمهل قليلاً فإن سحابة عظمتي لم تزل تمسكها أنفاس ضعيفة. لن تلبث أن يتساقط ماؤها، وتنقضي سريعاً إن نهاري قد أظلم لقد سرقت التاج الذي سيصبح بعد ساعات معدودات ملكاً لك دون حاجة إلى أن ترتكب إثماً.

وها أنت ذا قد أثبتّ ساعة موتي أن ظني فيك كان حق حقاً. فقد كانت حياتك تشهد بأنك لا تحبني وأنك أردتني على أن أموت متيقناً من هذه الحقيقة فقد كنت تخفي لي العداوة والقلى وتضمر لي الشر في أفكارك وتشحذ خناجر بغضك على قلبك الحجري لتكيل لي طعنات قبل أن أقضي بنصف ساعة إذن عجل بي واحفرْ قبري بيديك..

نكتفي بهذا الاقتباس كنموذج لمسرح شكسبير.

مشهد من إنتاج مسرح شكسبير مسرحية هنري الرابع الجزء الأول (تصوير كارل هيو)